**مدخل :**

**أ: في الجاهلية :**

عرف العرب مند الجاهلية فن الخمريات ، إلا أنه لم يأخذ نصيبه من الدرس كما أخذته موضوعات أخرى كالمدح والهجاء والفخر والحماسة ، فقد اهتموا بمتعهم

ولذاتهم سواء كانت تتصل بالحس أو بالشعور ،والخمرة كانت إحدى متع حياتهم وأحد موضوعات شعرهم الذي تفرع بدوره إلى معان عديدة دارت حولها معظم خمريات الجاهلية، ونجد فئة من الشعراء جعلوا الخمر في مطلع قصائدهم ، خلافا لما كان سائدا في استهلال القصيدة إذ كانت المقدمة الطللية هي السائدة ، وهنا نجد محاولتين فريدتين في خرقهما لما كان مألوفا في استهلال القصيدة بذكر الخمرة دون غيرها ، وكل منهما ترسخ قيمة للخمرة في كونها موضوعا جديرا بأن يكون في مقدمة القصيدة .

أما القصيدة الأولى فهي قصيدة عدي بن زيد العبادي ، ومطلعها

بَكُرَ العَاذِلُونَ فِي وَضَحِ الصُبْـ ــحِ يَقُولَونَ لِي ألاَ تَسْتَفِقْ

وَيَلُومُونَ فِيكِ يَا اِبنَةَ عَبْدِ اللَّـ ـــهِ والقَلْبُ عِندَهُمْ مَوهُوقُ[[1]](#footnote-2)

نجد أن عدي ابن زيد يفتتح قصيدته بالشكوى من العواذل إذ يلومونه من السكر المستمر .

ومن افتتاحية قصيدته نستنتج أن القصيدة هدفها وصف الخمرة ، إذ أن هذه القصيدة تعد من القصائد النادرة التي تعد خمرية برمتها في الجاهلية ، فهي قائمة على الوصف الدقيق للخمرة من حيث لونها وصفاتها ومزجها وتعتيقها ومجالس شربها .

والقصيدة الثانية هي معلقة عمرو بن كلثوم الثغلبي ، ومطلعها.

أَلاَ هُبِي بِصَحْنِكِ فاصْبَحِينَا ولا تُبْقِي خمُور الأندَرِينَا

مُشَمَعَةٌ كَأنَ الحُصَ فيهَا إذَا مَا المَاءُ خَالَهَا سُخِينَا [[2]](#footnote-3)

تختلف هذه القصيدة عن قصيدة عدي بن زيد ، إذ هي ليست قصيدة خمرية وإنما جاءت الخمرة كفاتحة لها ، فالمعلقة تشتمل على الخمر والنسيب والفخر وهي موضوعات متصلة بنفس الشاعر [[3]](#footnote-4)، يمدح الخمر ويقول أنها تميل صاحب الحاجة عن حاجته وهواه إذا ذاقها حتى يلين ، أي أنها تنسي الهموم وحوائج أصحابها فإذا شربوها لانوا ونسوا أحزانهم وحوائجهم ، وهذا الوصف يكون في أربعة أبيات ، بعدها ينتقل للفخر بنفسه وقومه ويتحدى الأعداء في حضرة عمرو بن هند . لم يكن وصف الخمر مقصودا لذاته عند شعراء المعلقات ، وإنما تناولوها في سياق قصائدهم ووصفوها في معرض الفخر ، فقد كان شرب الخمر عندهم مظهرا من مظاهر السيادة والكرم ، ارتبطت بموضوع قصائدهم فالشاعر إذا تغزل بحبيبته شبهها بالخمرة في رقتها وأنسها، فكانت الخمرة متصلة أيما اتصال بموضوع القصيدة الجاهلية، نجد عنترة بن شداد في معرض افتخاره بنفسه يفتخر بشرب الخمرة إذ يقول :

وَلَقَدْ شَرِبتُ مِنَ المَدَامَةِ بَعْدَمَا رَكَدَ الهَوَاجِرَ فِي المَشُوقِ المُعَلَمِ

بِزُجَاجَةٍ صَفْرَاءُ ذَاتِ أَسِرَّةٍ قَرَنَت بِأَزْهَرِ فِي الشَّمَالِ مُفَدَمِ

فَإذَّا شَرِبْتُ فَإنِي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلَّمِ

وَإذَّا صَحَوتُ فَمَا أُقَصِرُ عَن نَدَى وَكَمَا عَلِمْتِ شَمَائِلِي وَتَكَرُمِي [[4]](#footnote-5)

فهو يشرب الخمر عند ركود الهواجر دلالة على نعمته ، ويشتري الخمر بماله ويصف بعض أدوات الشرب من كأس وإبريق ، وينفق ماله في سكره وصحوه فكرمه طبع أصيل فيه.

فكما أشرنا سابقا إلى إنفراد كل من عمرو بن كلثوم وعدي بن زيد باستهلال قصائدهما بالخمر ، فقد امتاز الأعشى عن شعراء الجاهلية بما أشاع من حياة في خمرياته وبما بثّ فيها من عاطفته الشخصية فقد فتن بالخمرة ووصفها في أغلب قصائده حتى عدت أداة من أدوات فنه ، فهو لم يقتصر على القول في الخمرة وحدها ، وإنما وصف كل ما يتصل بها من أوان ومجالس الخمرة ، وأتى بمعان جديدة حتى عده الرواة والنقاد شاعر الخمرة في الجاهلية .

فالأعشى يصف مجلس الشرب وصفا مفصلا ، يتبين من خلال حالة السكر التي وصل لها من خلال استعماله لألفاظ متكلفة ، حيث يقول :

وَقَدْ غَدَوتُ إلَى الحَانُوتِ يَتْبَعُنِي شَاوٍ مَشُلُ ،شَاوِلُ،شَلْشَّلُ ،شَوُلُ

فِي فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الهِنْدِ ،قَدْ عَلِمُوا أَنَّ هَالِكُ كُلَّ مَن يَحْفِي وَيَنْتَعِلُ [[5]](#footnote-6)

**ب/ في صدر الإسلام :**

ظهر الإسلام في جزيرة العرب فشغل أهلها في أثناء حياة الرسول ومعظم أيام الراشدين بالفتوح والجهاد والتفكير في كتاب الله ، وجاء الإسلام بالقرآن والحديث فاخذ بمجامع قلوبهم واستقر في المكان الأول في أذهانهم ، وغيروا من عاداتهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم ، خاصة تلك التي كان يحملها العربي في أيام الجاهلية من شرب للخمر ، وعبادة للأوثان وغيرها ، فقد أحدث الدين الجديد تغيرا جذريا في حياة العرب ، وفيما يخص شرب الخمر والتغني بها وردت عدة آيات وأحاديث نبوية تنهي عنها وتحرمها تدريجيا .

ونقول تدريجيا لأن شرب الخمر كان من عادات العرب في الجاهلية ، ولما جاء الإسلام لم يقم بتحريمها من أول أية نزلت بها وإنما كان ذلك بمراحل ثلاث هي :

أولا قوله تعالى :" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِر قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا "[[6]](#footnote-7) فشرب الخمر إثم أمرنا الله بالابتعاد عن الإثم ما ظهر منه وما بطن ، أي أن هذه الآية تدعو إلى الابتعاد عن شرب الخمر .

ثانيا في قوله جل جلاله : " يَا أَيُهَا الذِينَ أمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ "[[7]](#footnote-8). وإذا أمعنا في التدرج الثاني من التحريم الخمرة نجد أن أوقات الصلاة هي خمس أوقات ، فقد بدأ الناس ترك شرب الخمر خمس مرات في اليوم وأغلب الناس لا يقرب الخمر إلا بعد صلاة العشاء لأن للخمرة تأثير أطول من الفترة بين كل صلاة وأخرى .

ثالثا: قوله تعالى :" يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيسِرُ والأنصَابَ وَالأزْلامَ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَكُمْ تُفْلِحُونَ ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيطَانُ أَن يُوقِعَ بَينَكُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيسِرِ وَيَصُدَكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ "[[8]](#footnote-9)

نجد في هذه الآية التحريم النهائي لقوله تعالى " رجس " لأن الرجس في الشرع لما يلزم اجتنابه تبعا بقوله " فاجتنبوه " وذلك أمر ، والأمر يقتضي الإيجاب فانتضمت الآية في تحريم الخمر من هذين الوجهين .

كما وردت عدة أحاديث نبوية جاءت للقول في تحريم الخمر ، فعن ابن عمر أنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه "[[9]](#footnote-10)رواه الترمذي وأبو داود في سننهما وأحمد في مسنده عن ابن عباس ، فقد لعن الله الخمر والثمانية الذين ذكروا في الحديث النبوي فقد نهى الرسول المصطفى عن شرب الخمر إلى درجة اللعنة .

وعن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :" لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن "[[10]](#footnote-11) رواه البخاري والترمذي والنسائي .

فقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم الزنى والخمر في مرتبة واحدة على أنهما من الكبائر .

وروى مالك عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كل مسكر خمر وكل مسكر حرام " [[11]](#footnote-12)مع أحاديث كثيرة هذا أشدها إفصاحا وأبعدها حيلة في التناول والشاهد على ذلك أن الخمر إنما حرمت لإسكارها وجرائها على شاربها.

بعد كل ما تطرقنا له من نصوص دينية جاءت جلها في تحريم الخمر ، والتغني بها ، أذى هذا إلى ركود الشعر الخمري لأسباب يعود كلها من قريب أو بعيد إلى الدين الإسلامي فمنها ما يعود إلى حد الخلفاء في شرب الخمر ووصفها ، ومنها ما يعود إلى اشتغال الناس بالتفكير في كتاب الله ، والتدبر فيه والخوف من الله ، ومنها ما يعود إلى الفتوحات الإسلامية واشتغال الناس في الجهاد بغية نشر الدين الإسلامي .

ولقد كان للنصوص الدينية كبير الأثر في عزوف المسلمين عن شرب الخمر وحضور مجالس الشرب ، مما أدى إلى زوال الشعر الخمري شأنه شأن الأغراض الشعرية الأخرى التي كانت تنتشر في الجاهلية إلا أنه مع الدين الإسلامي بدأت في الزوال كالغزل والمدح والهجاء وغيرها.

**ج/ في العصر الأموي :**

مع انتهاء عصر الخلفاء الراشدين ، وتربع بني أمية على كرسي الخلافة ، اتسعت رقعة المجتمع الإسلامي بفعل الفتوحات الإسلامية ، ومع هذا التوسع كثرت الثروات والغنائم وأصبحت الأموال والهدايا تتدفق على بني أمية من كل الأقطار الإسلامية مما أدى إلى حالة من الترف والغنى ، حولت حياة بعض الأعراب البسيطة إلى حياة مترفة ، وضعف سلطان الدين وانصرف الخلفاء وولائهم عن الحدود والشرائع ، كما عمل خلفاء بنو أمية على إحياء الشعر من جديد بعد حالة الركود الذي عرفه في صدر الإسلام ،للاستعانة به في خدمة سياستهم ، كما أسهموا في إحياء النعرات القبلية ، قصد إشغال العرب عنهم وعن حكمهم ، ومن هنا كانت كل الظروف مواتية لعودة الشعر الخمري في العصر الأموي .

فأقبل الخلفاء على اللهو والشرب والترف ، فانتشرت ظاهرة مجالس الخمر عند بعض الشعراء في العصر الأموي .

فإن تحضر العرب قي هذا العصر وإحاطة أنفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس أنيقة [[12]](#footnote-13)، وانغماسهم في اللهو والمجون أدى إلى ضعف الوازع الديني عندهم ، فكثرت كما أشرنا سابقا مجالس الخمر والتغني بها ، والمعروف أن الإسلام حرم شرب الخمر ، وأن عمر شدد في عقابها حين وجد بعض المسلمين يقترفونها ، وقصة صلاة الوليد بن عقبة والي الكوفة لعثمان بالناس وهو سكران مشهورة .ومع سياسة بني أمية في إغداق معارضيهم أو بالأحرى أبناء عمومتهم من بني هاشم وأبناء الصحابة بالأموال والجواري أدى هذا إلى تحضر مكة والمدينة وانتشار دور الغناء ومجالس الشرب والخمر ، قال مروان بن الحكم والي المدينة:

إنَّا لَنَشْرُبُهَا حَتَّى تَمِيلَ بِنَا كَمَا تَمَايُلُ وَسْنَانِ بُوسِنَانِ [[13]](#footnote-14)

ومن كانوا يحتسونها في هذه البيئة لأواخر العصر ابن عبادة مادح الوليد بن زيد بن عبد الملك ونديمه ، وفيها يقول :

وَمُعَتَقٍ حُرِمَ الوَقُودُ كَرَامَةً كَدَمِ الذَّبِيحِ تَمُجُهُ أَدْوَاجُهُ

ضِمْنَ الكُرُومِ لَهُ أَوَائِلُ حَمْلِهِ وَعَلَى الدَنْدَانِ تَمَامُهُ وَنِتَاجُهُ [[14]](#footnote-15)

إذا كما رأينا سابقا فقد حاول بعض الخلفاء فصل الدين عن شؤون الدولة وتعطيل بعض حدود الدين لإرساء حكمهم وإلهاء العامة وإبعادهم عن السياسة ، وذلك بإغراقهم في الملذات ، فعادت أغلب الأغراض الشعرية منها الخمريات ليتفشى شرب الخمر في هذا العصر تبعا لحياة الترف .

ويعد الوليد بن زيد الخليفة الأموي أول من وصف الخمرة من المسلمين فقد فتحت عيناه على النعيم والترف بل على اللهو والمجون إذ كان أبوه مكلفا بالخمرة والعتاد، حتى في وقت خلافته ، فقد كان الوليد شاعرا مبدعا ، فأنفق شعره في الخمر وله أشعار في الغزل والحب ولكنها دون أشعار الخمر في الإبداع والروعة ، فقال أبو الفرج " وللوليد في ذكر الخمر وصفاتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأخذوها في أشعارهم وسلخوا معانيها "[[15]](#footnote-16).

فكانت الخمرة بالنسبة للوليد شيئا مقدسا يصفها بأحلى العبارات تكتنفها أغنى المقطوعات ، حتى شبهه فئة من جلسائه بالأعشى لتكلفه في وصف الخمرة والإجادة فيها ، فيعتبر من الدافعين للشعر الخمري خاصة في أيام خلافته ، فأصبحت تنظم في مقطوعات لها وحدتها الموضوعية والمعنوية تنبض بالحياة لسبب طبيعي هو أن ناظمها عاشق للخمر إذ يقول :

اِصْدَعْ نَجْيَّ الهُمُومِ بِالطَرَبِ وَانْعَمْ عَلَى الدَّهْرِ بِابْنَةِ العِنَبْ

وَاسْتَقْبِلْ العَيْشَ فِي غَضَارَتِهِ وَلاَ تَقِفْ مِنْهُ آثَارَ مُعْتَقِبْ

مِنْ قَهْوَةٍ زَانَهَا تَقَادُمُهَا فَهِيَ عَجُوزٌ تَعْلُو عَلَى الحِقَبْ

اَشْهَى إِلى الشُرْبِ يَومَ حَلْوَتِهَا مِنَ الفَتَاةِ الكَرِيمَةِ النَّسَبْ

فَقَدْ تَجَلَتْ وُرَةُ جَوْهَرِهَا حَتَى تَبَدَلَتْ فِي مَنْظَرٍ عَجَبْ [[16]](#footnote-17)

وخلاصة القول أن الشعر الخمري شهد تطورا في هذا العصر حتى نهاية القرن الأول إلا أنه مع تغير الجيل في القرن الثاني للهجرة بسبب الاختلاط بين العرب وغيرهم من الأمم خاصة الفرس ، أخذ يظهر آثاره الكثيرة المختلفة ، من مجون وحب الخمرة واللهو ، وقد بدأ الشعر الخمري في هذا القرن مع الوليد بن زيد بن عبد الملك ، لصدقه في شعره وتقديسه للخمرة وتقديمه لها ، فكان قد أرسى أسس الشعر الخمري لغيره من الشعراء في العصور اللاحقة ،كما سنتطرق له بالتفصيل في ما يأتي من بحثنا ونقصد هنا عصر ازدهار التطور الحضاري العربي الإسلامي ، وما رافقه من تطور وبروز للشعر الخمري حتى أصبح فنا مستقلا بذاته ، بفضل شعراء خطوا على نهج سابقيهم كأبي نواس وغيره.

1. محمد جبار المعيبد ، ديوان عدي بن زيد العبادي ، دار الجمهورية بغداد 1965، ص 76 [↑](#footnote-ref-2)
2. إميل بديع يعقوب ، ديوان عمرو بن كلتوم ، دار الكتاب العربي ، ط1 ،1991، ص 64 [↑](#footnote-ref-3)
3. محمد صبري الأشتر ، العصر الجاهلي ، الأدب والنصوص مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية 1994 ، ص 362 [↑](#footnote-ref-4)
4. المرجع السابق ، ص 360 [↑](#footnote-ref-5)
5. المرجع السابق، ص 361 [↑](#footnote-ref-6)
6. سورة البقرة الآية 219 [↑](#footnote-ref-7)
7. سورة النساء الآية 43 [↑](#footnote-ref-8)
8. سورة المائدة الآية 91.90 [↑](#footnote-ref-9)
9. الرقيق القيرواني ، قطب السرور في أو صاف الخمور ، د ت د ط ص 199. [↑](#footnote-ref-10)
10. المرجع نفسه ، ص 201. [↑](#footnote-ref-11)
11. المرجع السابق، ص 193. [↑](#footnote-ref-12)
12. شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي ، دار المعارف ، ط10 ب ت ص 380 [↑](#footnote-ref-13)
13. المرجع نفسه ،ص 377. [↑](#footnote-ref-14)
14. المرجع السابق، ص 378 [↑](#footnote-ref-15)
15. المرجع نفسه ، ص 381 [↑](#footnote-ref-16)
16. المرجع السابق، ص 383.382 [↑](#footnote-ref-17)